الأبنية النصية العليا في سورة "المؤمنون"

د. عصام عبد المنصف أبو زيد

مدرس النحو والصرف والعروض

مدخل .

لا يمكن الخوض في تحليل نصٍّ ما أو الحديث عن عناصر تماسكه إلا بتحديد أبنيته المُشكَّلة له، والتي تميّزه عن سائر النصوص ، والتعرف على محتويات هذه الأبنية ؛ إذ يُعدُّ ذلك من مكونات البحث في التماسك النصي .

وإذا كانت اللغة المُشكَّلة للنصّ نظاماً عاماً فإنَّ هناك أنظمة ثانوية = أبنية نصية تسهم في تشكيل هذا النظام العام وفي رسم ملامحه ، هذه الأبنية هي التي تُؤسِّسُ عليها النصوص اللغوية على مختلف أجناسها ، ولم يكن لهذه النصوص أن تُدرَك في جموحها من الناحية المنهجية في ظل تعقُّدها التام إلا من بعد مناقشة مفهوم شكلها^(١) - أي هندسة بنائها ، أو أبنيتها العليا بحسب مفهوم فان دايك - ومفهوم مادتها ، أي مضمونها ، أو أبنيتها الكبرى . فالنصوص ما هي إلا أبنية لغوية متعددة الأبعاد ، ولأنماطها وأنواعها - تبعاً لذلك - فرصة أكبر في نجاحتها وتحقيق أهدافها^(٢)، وذلك إذا توافر لها الشكل الجيد الذي تُصَبُّ فيه.

والنصُّ اللغوي يحكِّمه نوعان من العلاقات : أولهما : العلاقات الأفقية^(٣)، أو ما يمكن تسميتها بالأبنية الصغرى في النص ، وهي وحدات نصية صغرى تربط بينها علاقات نحوية متعددة كالإسناد ومتعلقاته ، وهذه الوحدات النصية تشكل لبنة النص التي تُبنى عليها بعد ذلك العلاقات الرأسية، ومن ثم فهي الأساس في نحو النص الذي لا يمكن الانطلاق إليه إلا من خلالها. ثانيهما : العلاقات الرأسية أو ما يمكن تسميتها بالأبنية الكبرى في النص ، وهي السياق النصي أو الناتج الدلالي من ترابط الوحدات النصية الصغرى بعضها ببعض وتجاورها في بنية نصية واحدة ، لأن تحليل النصوص تحليلاً علمياً - وإن كان قائماً على النظر إلى النصّ باعتباره وحدة واحدة لا تتجزأ - ينطلق في أساسه من الجملة ، مما يؤكد تأزر الأبنية الصغرى مع الأبنية الكبرى وتعالقهما معا في الكشف عن الثوابت التركيبية والدلالية للنصوص . ولابد

لهذه العلاقات الأفقية والرأسية من شكل تنظيمي تُدمج فيه ، أو بناء هندسي يُحدد النظام الكلي لأجزاء النص ، وهو ما يُعرف بالأبنية العليا .

أولاً : مفهوم الأبنية العليا .

هي هيكل النص أو قالبه الذي يُصَبُّ فيه مضمونه (أبنيته الكبرى) ، وذلك عن طريق أدوات للربط - نحوية ومعجمية - تتعاقب معا في توضيح الغاية من النص وإنتاج دلالاته، ولذلك تُعدُّ الأبنية العليا رابطا من الروابط النصية المهمة التي تسهم في التحام أجزاء النص.

ويرى فان دايك أن الأبنية العليا هي أبنية عامة تُميز نمط نصٍّ ما، وتُحدد في الوقت ذاته النظام الكلي لأجزاء النص^(١)؛ ومن ثم فهي نوع من التخطيط الذي يتواءم معه النص.

وتتميز الأبنية العليا والأبنية الكبرى بِسِمَةٍ مشتركة ، وهي أنهما لا يتحددان بالنسبة لجمل أو لمتتالية معزولة من الجمل ، وإنما بالنظر إلى النص كله أو إلى أجزاء كبيرة منه^(٢)، وهذا ما يضيف عليهما صفة الكلية أو الشمول ، على عكس الأبنية الصغرى التي تتحقق في مستوى الجمل ، إلا أنهما يفترقان في أمرين : أولهما : هو كون الأبنية العليا أبنية شَكْلِيَّة هَيْكَلِيَّة تنظيميَّة ، أما الأبنية الكبرى فهي دلالية تعمل على خَلْقٍ أَوْجُهٍ رَبطٍ أفقية بين الجمل ، كما تسهم بدور فَعَّالٍ في فهم مضمون النص . ثانيهما : أن الأبنية الدلالية الكبرى في حدِّ ذاتها ليست عرفية ، أما الأبنية العليا فعلى العكس من ذلك شأنها شأن الأبنية النحوية تتركز على قواعد عرفية قابلة للتحويل^(٣)، وعلى الرغم من ذلك ما تزال معارفنا الحالية عنها في بداياتها إلى حد كبير ، " ومع ذلك يستطيع المتلقي عند التلقي الإدراكي لنص ما أن يقرر ما إذا كان المتكلم يحكي له شيئا أو يخبره عن شيء ، أو يحاجّه ، أي أن المتلقي يستطيع أن يقرر - بمساعدة الخواص الكلية للنص - بوضوح ما إذا كان النص الذي أنتجه المتكلم نصا سردياً أو وصفيّاً أو جدليّاً " ^(١).

ثانياً : دور الأبنية العليا في تحقيق التماسك النصي .

إنَّ لكل نص أبنية العليا التي تميزه عن سائر النصوص ، فأبنية النص القرآني تختلف حتماً عن أبنية الحكاية ، أو الخطبة ، أو النص الشعري ، أو غير ذلك من الأجناس الأدبية. وتقوم هذه الأبنية بدور مهم في تحقيق التماسك النصي من خلال ما يشتمل عليه النص من مؤشرات ترشد إليها وتدل عليها مثل^(٢): العناوين الرئيسية، والعناوين الفرعية، والعناوين البينية، والعبارات الضمنية التي تعود على كامل النص ، والنصوص المصاحبة كالتمهيد ، والمقدمة ، والخاتمة .

أما النص القرآني - بجميع سورته - فأبنية العليا مميّزة له عن باقي القوالب من شعر ونثر وغير ذلك من الأجناس الأدبية المتعددة ، وهذا ممّا أعجز فصحاء العرب عن مجاراته أو الإتيان بسورة من مثله ؛ فإعجاز القرآن لم يكن مقصوراً على اختيار ألفاظه ، أو نظم جملة ، أو رصف تراكيبه ، وإنما تعدى ذلك كله إلى الهيكل التنظيمي الرصين والبناء المحكم الذي ليس له نظير ، فاحتوى هذا البناء مضامين متعددة وقضايا متنوعة ، ربما عُولِجَتْ من بعدُ في السنة النبوية وفي كتب العلماء والمفسرين إلا أن معالجتها في النص القرآني في إطار أبنية العليا المميزة له تختلف عما عداها من معالجات ، وهذا المعنى ذاته أكدّه الشيخ الطاهر بن عاشور في قوله : " وإنما تتزل سور القرآن في أغراض مقصودة ، فلا غنى عن مراعاة الخصوصيات المناسبة لفواتح الكلام وخواتمه بحسب الغرض ، واستيفاء الغرض المسوق له الكلام، وصحة التقسيم ، ونكت الإجمال والتفصيل ، وأحكام الانتقال من فن إلى آخر من فنون الغرض ، ومناسبات الاستطراد والاعتراض والخروج والرجوع ، وفصل الجمل ووصلها ، والإيجاز والإطناب ، ونحو ذلك مما يرجع إلى نكت مجموع نظم الكلام ، وتلك لا تظهر مطابقتها جلية إلا إذا تمّ الكلام واستوفى الغرض حقه ، فلا جرم كان لنظم القرآن وحسن سبكه إعجاز يفوت قدرة البشر هو غير الإعجاز الذي لجُمِلِه وتراكيبه وفصاحة ألفاظه . فكانت السورة من القرآن بمنزلة خطبة الخطيب وقصيدة الشاعر لا يُحكّم لها بالتفوق إلا باعتبارات مجموعها بعد اعتبار أجزائها"^(١).

وقد أثرتُ أن أثبت هذا النص - على الرغم من طوله - لأنه بدا محتويا على قواعد التحليل النصي ، وكأنَّ ابن عاشور قد اطلَّع على معايير علم لغة النص الحديث ، مما يؤكد أن ذلك العلم لم يكن بدعا على ثقافتنا العربية ، فأثبت ابن عاشور ضرورة المناسبة ومراعاة السياق ، وتحدث عن عناصر التماسك النحوية كالاعتراض ، والفصل والوصل ، والخروج والرجوع ، وكذلك المعجمية كالإجمال والتفصيل ، كما أشار إلى ما يُسمَّى في علم لغة النص بالأبنية العليا حينما ذكر أن السورة من القرآن بمتزلة الخطبة أو القصيدة لا يُحكَّم لها بالتفوق إلا باعتبارات مجموعها بعد اعتبار أجزائها ، ولعله يُفهم من قوله : " باعتبارات مجموعها " الأبنية العليا المنظمة لأجزاء السور القرآنية ، وهذا هو الإعجاز الأسمى للقرآن الكريم ؛ إذ لم يكن محصورا في إعجازه على جُمْلِهِ وتراكيبه وفصاحه ألفاظه . وبذلك تجاوز ابن عاشور في نظريته إلى النص القرآني حدود الجملة إلى محيط النص كله ، ونظر إليه باعتباره وحدة واحدة لا تتجزأ .

وكما ثبت أن الأبنية العليا عرفية تستند على قواعد وأُسُسٍ مُتعارَف عليها ، فإن قارئ النص القرآني الذي يملك أدوات التحليل يمكنه من الوهلة الأولى إدراك هذه الأبنية والتعرف على مكوناتها ، وذلك على عكس الأبنية الكبرى التي تحتاج إلى قراءة النص كله .

وفي توضيح الأبنية العليا وبيان أهميتها في تماسك النص القرآني اختار البحث سورة " المؤمنون " ؛ لأنها من السور التي يُعدُّ عنوانها مفتاحا لها ، ومحورا مهما في فكِّ شفرتها وإبراز دلالاتها ، كما أنها تجذب القارئ بتماسك آياتها ، وتلاحم تراكيبها ، وتناغم فواصلها ، وتآزر أبنيتها العليا (شكلها) مع أبنيتها الكبرى (مضمونها) في معالجة قضايا الإيمان والتوحيد . وقد تمثَّلت الأبنية العليا في سورة " المؤمنون " في ثلاثة محاور رئيسة بُني عليها هذا البحث وهي :

١- المناسبة .

٢- الإيقاع العام للآيات .

٣- فواصل الآيات .

وفيما يأتي تفصيل ذلك .

المبحث الأول : المناسبة .

لا نعي بالمناسبة في هذا المقام مناسبة التزول ، أي ذكر الأسباب التي نزلت لأجلها سورة " المؤمنون " أو كانت ملاصقة لتزول آياتها ، ومن ثم كان من الضروري الوقوف أولاً على مفهوم المناسبة حتى تتبين لنا علاقتها بالبحث .

١- مفهوم المناسبة .

المناسبة في اللغة هي : " المشاكلة ، يُقال : بين الشيئين مناسبة وتناسبٌ: أي مشاكلةٌ وتشاكلٌ . وكذا قولهم : لا نسبةً بينهما ، وبينهما نسبةٌ قريبةٌ " ^(١) . وذكر الشريف الجرجاني في تعريفاته : " .. والنسبةُ : إيقاع التعلق بين الشيئين " ^(٢) .

مما سبق يتضح أن المناسبة هي البحث عن أوجه الربط بين أجزاء النص التي تنقطع الصلة بينها ، أو لم يكن بينها ارتباط ظاهر ، وهذا ما عمد إليه المفسرون القدماء أمام النص القرآني ، إذ راحوا يبحثون في العلاقة بين الآيات لاكتشاف معنى ما رابط بينها " عامٌ أو خاصٌ ، عقليٌّ أو حسيٌّ أو خياليٌّ ، وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني ، كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، والتظهيرين ، والضدّين ، ونحوه " ^(٣) ؛ وبهذا تُعدُّ المناسبة من أهم مكونات الأبنية العليا للنص القرآني .

٢- دور المناسبة في تحقيق التماسك النصي .

من مفهوم المناسبة يتضح أن وظيفتها تكمن في تحقيق الاتصال بين أجزاء الكلام ، وإذا تحقق الاتصال بين الكلام تحقق التماسك النصي ؛ إذ إن المناسبة تقتضي وجود علاقة بين المتناسبين ، وهذه العلاقة تقتضي بدورها مرجعية من أحد المتناسبين إلى الآخر ^(٤) ، وبحقق هذه المرجعية يتحقق التماسك بينهما ، وهذا ما جعل الشيخ عز الدين بن عبد السلام يشترط في المناسبة أن يكون الكلام واقعاً في أمر متحد مرتبط أوله بآخره ^(٥) . ومن هنا لا يمكن عزل المناسبة عن السياق ، بل يتحتم ربطها به حتى يتبين للمفسر أو المحلل دقائق الربط بين أجزاء النص .

وقد أدرك العلماء قديما وحديثا قيمة المناسبة ودورها في تحقيق التماسك بين أجزاء الكلام ، إلا أن اعتماد النصيين المحدثين عليها لم يكن كاعتماد القدماء ، ولم يتحدث عنها إلا القليل منهم كـ " براون " و " يول " في كتابهما " تحليل الخطاب " ، ومحمد خطابي في كتابه " لسانيات النص " ^(١) ، أما القدماء فكانوا أكثر وعيًا وإلمامًا بأهمية المناسبة ، وهو ما جعل أحدهم يؤلف كتابا عظيما في هذا العلم ككتاب " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور " للإمام البقاعي ، والذي ذكر فيه أن علم المناسبة في القرآن " علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه ، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال ، وتتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها . ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها " ^(٢) ، وكذلك كتاب " تناسق الدرر في تناسب السور " للسيوطي . وتحدث الزركشي أيضا عن المناسبة وذكر أن فائدتها تكمن في " جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم ، المتلائم الأجزاء " ^(٣) . وقال القاضي أبو بكر بن العربي: " ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم " ^(٤) .

وبهذا لا يخفى ما تحققه المناسبة في النص القرآني من ربط بين الآيات ، أو بين فواتح السور وخواتمها ، أو بين أسماء السور ومضمونها على نحو يجعل النص القرآني أو السورة القرآنية كالكلمة الواحدة . وقد تحققت المناسبة في سورة " المؤمنون " من خلال عدة عناصر أهمها ما يأتي :

٢ - ١ المناسبة بين اسم السورة ومضمونها .

اسم السورة هو عنوانها ، والعنوان - بصفة عامة - يُعَدُّ من المفاتيح المهمة في سبر أغوار النص ومحاولة فضِّ مغاليقه ؛ فهو أول ما يُفَرَضُ على الدارس أو المتلقي أن يتفحصه ويستنتقه قبل الولوج إلى أعماق النص ليستلهم منه مضمونه ، ومعنى ذلك أن عنوان أي نص لم يكن عبثا ، وإنما يكون على قدر كبير من القصد والإرادة ؛ فالعنوان دلالة وإحالة معينة على نص معين ، وهو " لافتة دلالية ذات طاقات مكتنزة ، ومدخل أولي لا بد منه لقراءة النص " ^(١) . كما تتجلى أهمية

العنوان فيما يثيره من تساؤلات لا نجد لها إجابة إلا مع نهاية القراءة ، فعنوان السورة التي معنا ربما يجذب القارئ ويفتح شهيته للقراءة أكثر حتى يتعرف على حقيقة المؤمنين الذين خصَّهم الله تعالى بالفلاح في مفتتح السورة ، وعلى صفاتهم ، وعلى الجزاء الذي أعدّه الله لهم ، وكل هذا لا يتم إلا بقراءة السورة كلها ، وبهذا تُشكّل أسماء السور القرآنية محورا مهما من محاور تماسك النص القرآني .

وقد لاحظ علماءنا القدامى تلك القيمة الرفيعة والمناسبة الدقيقة بين اسم السورة ومضمونها ، فذكر الزركشي " أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء ... ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها ، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز؛ كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقريظة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها . وسُميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها من كثير من أحكام النساء ، وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها"^(٢).

أما عن السورة التي معنا فيقال عنها سورة المؤمنين على اعتبار إضافة السورة إلى المؤمنين لافتتاحها بالإخبار عنهم بأنهم أفلحوا ، ويقال سورة "المؤمنون" على حكاية لفظ "المؤمنون" الواقع أولها في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ١] ، ومما جرى على الألسنة أن يسموها سورة "قد أفلح" ، أو سورة الفلاح^(٣). والواضح أن لفظ "المؤمنون" جعل تعريفا للسورة ، ودليلا عليها ، ومرشدا إلى موضوعها ؛ فمقصودها اختصاص المؤمنين بالفلاح وبيان صفاتهم التي قال عنها الرسول ﷺ : "...لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى ختم العشر"^(٤). وهي أيضا سورة الإيمان ؛ لأنها تعالج قضاياها ، ودلائله وصفاته؛ فبعد بيان صفات المؤمنين في مفتتح السورة استطراد السياق في ذكر دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق^(١) ، وفي ذكر حقيقته من لدن نوح - عليه السلام - إلى محمد ﷺ ، وذكر شبهات المكذبين حول هذه الحقيقة واعتراضاتهم عليها ، حتى يستنصر الرسل برهم ، فيهلك المكذبين ، ويُنجي المؤمنين. وهكذا جاء اسم السورة موازيا لمضمونها ومرآة لتسيجها النصي .

٢ - ٢ المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها .

وقف علماؤنا القدامى بالتأمل في فواتح السور وخواتمها ولاحظوا نوعا من المناسبة بينها ، وقدم الزركشي نموذجين لهذه المناسبة دون ذكر أي تعليق عليهما ، واكتفى بقوله : " وتأمل سورة القصص وابدأها بقصة مبدأ أمر موسى ونصرته ، وقوله : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص : ١٧] وخروجه من وطنه ونصرته وإسعافه بالمكاملة ، وختَمَها بأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - ألا يكون ظهيرا للكافرين ، وتسليته بخروجه من مكة والوعد بعوده إليها بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ [القصص : ٨٥] " ^(٢) . ثم أعقب ذلك قول الزمخشري : " وقد جعل الله فاتحة سورة المؤمنين " قد أفلح المؤمنون " ، أورد في خاتمتها : ﴿ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ ﴾ فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة ! " ^(٣) . والواضح أن الزركشي اعتمد في هذه المناسبات على عدة وجوه : أولها : الشبه بين نفي نبي الله موسى عن نفسه أن يكون ظهيرا للمجرمين ، ونهي الرسول ﷺ أن يكون ظهيرا للكافرين . ثانيها : المناسبة بين وعد الله موسى برده إلى أمه ووعد الرسول ﷺ بإرجاعه إلى مكة ^(٤) . ثالثها : علاقة التضاد بين إثبات الفلاح للمؤمنين في أول السورة ، ونفيه عن الكافرين في آخرها .

وقد ذكر الكرّماني شيئا مثل ذلك دون تعليق منه أيضا ، واكتفى بقوله : " في سورة ص بدأها بالذكر وختمها بقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَهًا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [ص : ٨٧] . وفي سورة ن بدأها بقوله : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : ٢] وختمها بقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ [القلم : ٥١] " ^(١) .

والواقع أن فواتح السور وخواتمها من المواضع التي تجمعها المناسبة ؛ لأنها أول ما يقرع الأسماع وآخره ، فيزداد مع ما يُذكر في أولها تشوّف النفس إلى ما يُذكر في آخرها ؛ ولذلك جاءت مفتوحة بالكثير من المعاني كالثناء ، والترية ، والنداء ، والقسم ، والشرط ، والاستفهام ، والدعاء ، والتعليل ، إلى غير ذلك من السور المفتحة بحروف التهجي على اختلاف صفاتها ^(٢) : المهموسة ، والمجهورة ، والشديدة ، والمطبقة ، والمستعلية ، والمنخفضة ، والمقلقلة . كما جاءت خواتمها أيضا متضمنة

للعديد من المعاني كالأدعية والوصايا ، والفرائض ، والمواظ ، والتحميد ، والتهليل ، والتبجيل والتعظيم ، والوعد والوعيد ، إلى غير ذلك من المعاني التي تكون آخر ما يقرع السمع ؛ فيزداد القارئ إليها انتباها وبها تمسكا ؛ ومن ثم كانت المناسبة بين فواتح السور وخواتمها من وسائل تماسك النسيج النصي للقرآن الكريم .

أما سورة " المؤمنون " فقد افْتُتِحَتْ بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون : ١] ، وهو افتتاح بديع لأنه من جوامع الكلم ؛ إذ إن الفلاح غاية كل ساع إلى عمله ، والإخبار بفلاح المؤمنين دون ذكر متعلق بفعل الفلاح يقتضي في المقام الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب ، فكأنه قيل : قد أفلح المؤمنون في كل ما رغبوا فيه^(٣) ، أي أفلحوا فلاحا كاملا . وتم تأكيد هذا الخبر بالحرف " قد " - وهو هنا بمثابة (إن واللام) في الجملة الاسمية - ثم بفعل المضى المستعمل في معنى التحقيق ، وقد ساعد ذلك الحرف التحقيقي مع ما أفاده الفعل الماضي في إزالة ما يمكن أن يخالج المؤمنين من شك في حصول ذلك الفلاح لهم ، وهذا تعريض بفرض رغبته في ذلك الفلاح وشدة ترقبهم وانتظارهم له ، وفي الوقت نفسه بشارة برضا الله عنهم ، ثم يأتي المسند إليه " المؤمنون " يحمل إشارة إلى أن الإيمان هو السبب الأعظم في استحقاقهم لذلك الفلاح ، وتمتد هذه الجملة وتتسع بما يتعلق بها من متواليات جمالية صغرى ، ولكن يبقى لها السيطرة على ما يليها من جمل وتراكيب ، وبهذا تشكّل الجملة الافتتاحية بؤرة أصلية للسورة كلها ، ومرتكزا ضوئيا يحمل عبء تراكم المعنى ، وتمثل في الوقت ذاته نقطة الانطلاق التي يُؤسّسُ عليها معنى السورة ، وتدور حولها أجزاؤها ، ويُعوّلُ عليها في تأويل ما يليها .

ثم تأتي خاتمة هذه السورة لتقرّر عكس ما تم تقريره في مفتتحها - وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٧] - أو لتؤكد ما تم تقريره من قبل من خلال الجامع العكسي بين المفتتح والمختتم وهو التضاد ؛ كما قيل : وبضدها تتبين الأشياء ، ولعلّ الحكمة من ذلك هي الثبوت على ما جاء في المفتتح ، وإرضاء النَّفْس في تطلّعها وتشوّقها إلى معرفة الجزء الذي سيقع على من خالف أولئك المؤمنين .

فافتتاحها وعد بفلاح المؤمنين ، واختتامها وعيد بعدم فلاح الكافرين ، وشتان ما بين الوعد والوعيد ! وقد جاء ذلك الوعيد في الجملة الاسمية التقريرية ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ وجاءت هذه الجملة مؤكدة بـ " إِنَّ " فضلا عما تفيد الجملة الاسمية من رسوخ المعنى وتقويته ، وهذا تأكيد بعد تأكيد ، وتقدير بعد تقدير بعدم فلاح الكافرين ، ثم يأتي ضمير الشأن في " إِنَّهُ " تنبيها وتمهيدا لنفي الفلاح عن الكافرين ؛ لأن ذلك الضمير يفيد من القوة في النفي ما لم يكن في " إن الكافرين لا يفلحون " ، فإن الفائدة لا تكتمل بذلك ؛ لأنك بالضمير - كما قال الإمام عبد القاهر - في حكم مَنْ بدا وأعاد ووطد ، ثم بنى ولوّح ، ثم صرّح ؛ إذ " ليس إعلامك الشيء بغتةً غفلاً ، مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له ، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام . ومن هنا قالوا : إن الشيء إذا أُضْمِرَ ثم فُسِّرَ، كان ذلك أفخم له من أن يُذكر من غير تَقْدِمة إضمار " ^(١) ، وهذا كان لضمير الأمر والشأن مع " إِنَّ " من الحُسْنِ واللفظ ما لم نره إذا هي لم تدخل عليه ، وإذا هو لم يدخل عليها . ثم يعبر عن عدم الفلاح بفعل التجدد والاستمرار " لا يفلح " ؛ ليشمل عدم فلاحهم كلّ زمان ومكان ، ويأتي المسند إليه " الكافرون " منبها على الكفر ، أي الجزاء ، ومُعَمِّماً للحكم ، ومؤكدا على فوز كل مؤمن وخيبة كل كافر . وهكذا صار أول السورة وآخرها خيطا تنتظم حوله أحداث السورة ، ويساعد في تماسك الآيات والتحام أجزائها ويُفهِمُ أَنَّ الفلاح مختص به المؤمنون وحدهم .

٢ - ٣ مناسبة فاتحة السورة لمضمونها .

فاتحة السورة هي جملتها الأولى ، وقد أدرك العلماء - قديما وحديثا - أهمية الجملة الأولى في تفسير النص وتَحَكُّمها في سائر الجمل اللاحقة لها بِحُكْمِ ورودها في البداية ؛ " فحي نقطة الانطلاق ، وهي المَعْلَمُ الأول المؤسّس لكل المعالم في النص ؛ وعليها يجري الربط بنوعيه... ؛ فما يلحق تفصيل لها وتوضيح أو هو إضافة من حيث الكمية الخبرية، وهو في الوجهين محكوم بها " ^(١) . وقد أكد العلماء أيضا على

أهمية السورة الأولى في إدراك مقاصد القرآن ، فقال أحدهم : " ... فنبّه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن ؛ وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة "(٢) ، وكأنّ القرآن قائم في مُجمله على علاقة الإجمال والتفصيل ، أي تأتي السورة القرآنية تفصيلاً لما أُجمل في آيتها الأولى ، ويأتي القرآن كله تفصيلاً لما أُجمل في فاتحته ، وهذا ما جعل ابن الزمّلكاني يجيب عن العلة في افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح ، والكهف بالتحميد " بأن سورة سبحان لما اشتملت على الإسراء الذي كذّب المشركون به النبي ﷺ ، وتكذيبه تكذيب لله تعالى ، أتى بسبحان لتزيه الله عما نُسب إليه ولنبية من الكذب. وسورة الكهف لما أنزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف وتأخير الوحي ، نزلت مبيّنة أن الله تعالى لم يقطع نعمته عن نبيه ولا عن المؤمنين؛ بل أتم عليهم النعمة بإنزال الكتاب، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة "(٣).

والارتباط واضح بين فاتحة سورة "المؤمنون" وما يليها من قضايا ؛ لأن الإيمان هو موضوع السورة ومحورها الأصيل ؛ إذ تبدأ السورة في مفتحتها بفلاح المؤمنين وذكر صفاتهم ، ثم ينتقل السياق إلى دلائل الإيمان وذكر حقيقته على مرّ التاريخ ، وبيان موقف الناس منه ؛ فمنهم مَنْ آمن به ومنهم مَنْ كذّب وصدّ عنه ، ثم إثبات النجاة للمؤمنين ، والحزني والهلاك للمكذّبين . وهكذا شكّل اسم السورة مع فاتحتها وخاتمتها مفاتيح نصية مهمة ، ساعدت في فكّ شفرتها ، وتلاحم أجزائها ، وانتظام أبنيتها ، وإنتاج دلالاتها .

٢ - ٤ المناسبة بين افتتاح السورة وختام ما قبلها .

جدّد العلماء في البحث عن المناسبات بين السور وبعضها ؛ ليؤكدوا تماسك النص القرآني كله كالكلمة الواحدة . يقول الزركشي : " وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ؛ ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى ؛ كافتتاح سورة الأنعام بالحمد ، فإنه مناسب لختم سورة المائدة من فصل القضاء ، ... وكافتتاح سورة فاطر بـ " الحمد " أيضاً ؛ فإنه مناسب لختم ما

قبلها من قوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ [سبأ: ٥٤] ، ... وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح ، فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به " (١) .

ويرى السيوطي أن النص القرآني في مجمله نص محكم البناء ، متلاحم الأجزاء ، بُنِيَ أغلب سوره على علاقة الإجمال والتفصيل ، أي تأتي السورة اللاحقة تفصيلا لبعض ما أُجْمِلَ في سورة سابقة ، وشرحا له ، وإطنابا لإيجازه (٢) . والواضح أن السيوطي اعتمد في ذلك - كما يقول الدكتور محمد خطابي (٣) - على وجود مجموعة من العناصر والأفكار في سورة معينة ، ثم تتنامى هذه الأفكار أو يتنامى بعضها في سورة لاحقة ، بل قد تكون سورة بأكملها تنمية لآية أو آيتين وردتا في سورة سابقة ، دون أن تخلو السورة اللاحقة من أفكار تنمو في سورة سابقة أو سورة لاحقة ؛ وبهذا يكون النص القرآني أشبه شيء بسلسلة تشدُّ حلقاتها بعضها إلى بعض ، مما يضمن تلاحمه كنصٍّ لا تني العلاقات بين أجزائه تتقوى كلما تقدمنا في قراءته .

وقد وقفنا من قبل على مفتتح سورة " المؤمنون " بالجملة الفعلية التحقيقية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقد ناسب هذا الافتتاح ما جاء في ختام سورة " الحج " قبلها أشد المناسبة؛ فقد خُتِمَت سورة الحج بنداء المؤمنين وأمرهم بالركوع والسجود والعبادة وفعل الخير ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧] ، ثم أعقب ذلك النداء الأمر بالصلاة والزكاة والاعتصام بالله سبحانه ، فقال تعالى : ﴿ فَأَقِمُْوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨] ، فكانه سبحانه لما أمر المؤمنين في ختام سورة " الحج " بالعبادة وفعل الخير والاعتصام به ، وأطمعهم بالفلاح جزاء لامتناعهم ، أراد أن يفتتح سورة " المؤمنون " بثمرة ذلك الاعتصام ، وبالإخبار بحصول ما كانوا قد رجوه من الفلاح ، فبدت سورة " المؤمنون " كأنها مفصلة لبعض ما أُجْمِلَ في سورة " الحج " ؛ ومن هنا وقع الالتحام بين السورتين .

٢ - ٥ المناسبة بين آيات السورة .

ذهب المفسرون مذاهب شتى في توضيح أوجه المناسبة في النص القرآني ، ومحاولة الوقوف على أسرارها ؛ ليؤكدوا اتساق المعاني بين الآيات ، وترابط أفكارها ، وتلاؤم ألفاظها ، وتلاحم أجزائها ، حتى تأتي السورة منه كالسبيكة الواحدة ، وهذا ما جعل الإمام البقاعي يؤلف كتابه المسمى بـ " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور " يبرهن فيه على تناسب الآيات القرآنية تناسبا تاما بما وراءها وما أمامها من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب^(١) .

وقد رأى السيوطي أن الارتباط بين الآيات إما أن يكون ظاهرا من خلال تعلق الكلام بعضه ببعض من جهة التأكيد ، أو التفسير ، أو الاعتراض ، أو البديل ، أو لا يظهر الارتباط وتبدو كل جملة مستقلة عن الأخرى ، ويكون الارتباط حينئذ خلال العطف ، أو أي دعامة تؤذن باتصال الكلام ، وهي قرائن معنوية تؤذن بالربط كالتنظير ، والمضادة ، والاستطراد ، وحسن التخلّص^(٢) . كل هذا جعل أحد العلماء يقدم قاعدة أو ما يشبه القانون لمعرفة المناسبة بين الآيات ، وهو " أنك تنظر الغرض الذي سيقته له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام في مقدمات إلى ما تستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له ... ؛ فهذا هو الأمر الكلي المعين على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإذا فعلته بين له وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة وسورة " ^(٣) .

والتأمل في سورة " المؤمنون " يلمس تدرجا بديعا وتسلسلا حكيما بين الآيات ؛ فتبدو السورة كلها كسلسلة من حلقات متعاقبة يشد بعضها بعضا ؛ إذ تتركز أحداثها في خمسة محاور تمثل في مجموعها الأبنية النصية الكبرى التي تقوم عليها السورة ، وهي كما يأتي :

المحور الأول : إثبات الفلاح للمؤمنين وبيان صفاتهم .

تبدأ السورة بإثبات الفلاح للمؤمنين ، وهذا هو المحور الذي تدور أحداثها حوله، ثم بإثبات ست خصال لهؤلاء المؤمنين : أولها : الخشوع في الصلاة ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢] ، وآخرها : المحافظة عليها ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩] ، فابتدأت هذه الخصال بالصلاة لأنها عماد الدين ، وانتهت بها لتكون آخر ما يقرع السمع ؛ تنويها بها ، وردا للعجز على الصدر^(١) ، وفي ذلك تحسين للكلام الذي ذُكرت فيه تلك الصفات ، ويحصل به كمال الاستقرار في الذهن . وبين هاتين الصفتين نجد إثبات بعض الصفات التي من شأن النَّفس إهمالها، كترك اللغو ، وأداء الزكاة ، وحفظ الفرج ، وحفظ الأمانة والعهد ، فكانت هذه الصفات في مجموعها أعمال ملكتي الفعل والترك في المهمات، وهما منبع الأخلاق الفاضلة لمن تتبعها . وبين هذه الصفات جميعا من المناسبة في التدرج والانتقال من واحدة إلى أخرى ما لا يخفى على متأمل ؛ إذ لما كان الخشوع في الصلاة صاددا عن اللغو أتبعه قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣] ، ولما جمع بين فعل الخشوع وترك اللغو، وهما قاعدتا بناء التكليف، " وكان المال مكفرا لما قُصِد من الأيمان فضلا عما ذكر منها على سبيل اللغو ، فكان مكفرا للغو في غير اليمين من باب الأولى "^(٢) أتبعه قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤] ، ولما أشار سبحانه إلى أن بذل المال على وجهه طهرة ، وأن حبسه عن ذلك تلفة ، أتبعه الإيماء إلى أن بذل الفرج في غير وجهه نجاسة ، وحفظه طهرة^(٣) ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥] ، وذَكَرَ ذلك بعد اللغو الداعي إليه وبذل المال الذي هو من أعظم أسبابه من تمام المناسبة ، ولما كانت تلك الصفات من الأمانات العظيمة جاء قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨]. وبعد الانتهاء من صفات المؤمنين المكتوب لهم الفلاح ، أراد الله لهم التدرج في مدارج الكمال الذي لا يتحقق للإنسان إلا بالخلود في الفردوس ، فقال سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ هُمْ

الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ [المؤمنون: ١٠، ١١] ، وهذه هي الغاية الحقيقية من الفلاح الذي كتبه الله للمؤمنين .

المحور الثاني : ذِكْرُ دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق .

ينتقل السياق من ذكر صفات المؤمنين إلى ذكر دلائل الإيمان في حياة الإنسان ذاته ، مبتدئاً بأصل النشأة الإنسانية ، ومنتهاً بمآل الإنسان إلى الموت ثم إلى البعث يوم القيامة ، وبين المبتدأ والمنتهى يستعرض أطوار وجوده ونموه في تدرج دلالي بديع أدى إلى انسياب المعاني وتسلسلها في ترابط محكم ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦] ، وهذا الانسياب هو الذي جعل معاذ بن جبل - رضي الله عنه - ينطق بخاتمة الآيات قبل أن يملئها الرسول ﷺ على زيد بن ثابت^(١) ، فما أن وصل الرسول ﷺ - في إملائه - إلى قوله تعالى : " خلقا آخر " إلا وقال معاذ : " فتبارك الله أحسن الخالقين " ، وهو لا يدري أن الآية قد خُتِمت بها ، وليس هناك أدل من ذلك على ترابط الآيات وتماسكها حتى يُفْضي أولها إلى آخرها. ثم يمضي السياق إلى ذكر دلائل الإيمان في الآفاق ، فينتقل من الحياة الإنسانية إلى ذكر الدلائل الكونية في خلق السماء ، وفي إنزال الماء منها وإسكانه في الأرض لتستقيم به الحياة ، وفي تسخير الأنعام للإنسان بمنافعها الكثيرة ، وفي الفلك التي يُحمل عليها ، وكأن في هذا التسلسل بين الآيات إشارةً إلى أن الإنسان إذا آمن بالخالق المدبر ، ثم تمسك بصفات المؤمنين حقق بذلك الكمال المقدر له في الحياتين : الدنيا ، والآخرة ، وهذا هو الرابط الدلالي - بين هذا المحور وسابقه - الذي ساعد في تماسك الآيات وتحقيق الاتساق بينها .

المحور الثالث : بيان حقيقة الإيمان .

يمضي السياق من ذكر دلائل الإيمان إلى بيان حقيقته الواحدة ، التي لا تتبدل على مدار الزمان ، وتعدُّد الرسائل ، وتتأبّع الرسل ؛ فقد توافقت عليها الرسل جميعاً دون استثناء^(١) ، وهي : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون : ٢٣، ٣٢] ، فالأمر واحد وهو أمر بعبادة الله وحده والتخلص من عبادة الأصنام ، وقد ناسب ذلك مجيئه بعد التذكير بدلائل قدرة الله وعظيم نعمه في المحور السابق ، ويأتي التعليل لهذا الأمر بقوله : " ما لكم من إله غيره " ، ثم إنكار ما هم عليه من عدم اتقائهم عذاب الله تعالى بقوله : ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ، وهذا الأمر بما يتضمنه من تعليل وإنكار هو ما أجمع عليه الرسل ، فأمر به نوح - عليه السلام - وأمر به كل من جاء بعده من الرسل حتى انتهت الرسالة بمحمد ﷺ ، لكن السياق بدأ بقصة نوح ؛ لأنه أول ، ولأن نجاته ونجاة المؤمنين معه كانت بالفلك المحتوم به الآية قبله^(٢) ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢] ؛ ففي ذكر الحمل على الفلك - في سياق التذكير بنعم الله في المحور السابق - هيفة للانتقال وحسن تخلُّص^(٣) إلى قصة نوح - عليه السلام - وقد ساعد ذلك في تحقيق المناسبة والتماسك بين الآيات . ثم تأتي إجابة أولئك الأقوام لرسولهم بأقوال تكاد تكون متحدة على مرّ القرون ؛ إذ قال قوم نوح : ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٤) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٤، ٢٥] ، وقال قوم هود: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٣٧) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧، ٣٨] ، وقال قوم موسى : ﴿أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] . وما كان من الرسل بعد هذه الردود إلا اللجوء إلى ربهم ؛ يطلبون نصرة رسالته ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦، ٣٩] ، قالها نوح ، وقالها من جاء بعده من الرسل ، فاستجاب الله لهم بنجاة المؤمنين وهلاك المكذبين الضالين ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ

أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿[المؤمنون: ٢٧]﴾ ، ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١] ، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٨] ، ثم يأتي نداء الله للرسول جميعا ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] . ولا يخفى ما بين هذه الآيات من رابط شكليٍّ ساعد في تماسكها وهو المناسبة ، فضلا عما بينها من رابط دلالي ؛ فالرسالة واحدة على مر الزمان وتتابع الرسل ، واستقبالها واحد من الجميع وهو التكذيب المكرور بعبارات متقاربة المعنى ، ولجوء الرسل إلى الله وطلب النصرة منه واحد كذلك ، واستجابة الله لهم واحدة وهي وعده بنجاة المؤمنين ووعيده بهلاك المكذبين وطردهم من رحمته ﴿فَبَعْدًا لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١] ، ﴿فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤] ، ونداء الله للرسول جميعا واحد مع اختلاف الزمان والمكان ؛ لأنه تربطهم حقيقة واحدة - من المبتدأ إلى المنتهى - هي حقيقة الإيمان .

المحور الرابع : اختلاف الناس حول تلك الحقيقة .

رصد السياق القرآني تفرُّق الناس وتنازعهم بعد مضي الرسل أمةً واحدةً ذات كلمةٍ واحدةٍ، وعبادةٍ واحدةٍ ، ووجهةٍ واحدةٍ^(١) ، ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] . هكذا وجدهم النبي ﷺ ، فأمره الله سبحانه أن يتركهم في غفلتهم التي أذهلتهم عن عاقبة ما هم فيه ، وينتقل السياق من صورة الغفلة التي عليها الكافرون إلى صورة اليقظة التي عليها المؤمنون المشفقون من عاقبة أمرهم وعذاب ربهم ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١] ، ثم يعود

السياق مرة ثانية إلى أولئك الكافرين ، يستعرض افتراءاتهم ، ويذكرهم بدلائل الإيمان في أنفسهم وفي الآفاق ، ويستنكر عليهم عنادهم وإصرارهم على كفرهم ، وينتهي بهم إلى مصيرهم المحتوم ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٣، ١٠٤] .

المحور الخامس : خطاب الله للنبي ﷺ .

ينتقل السياق بعد ذلك إلى خطاب الله سبحانه لنبيه ﷺ بأن يمضي في طريق دعوته ، وأن يدع أولئك الكافرين وشركهم ، ولا يغضب لعنادهم وكفرهم ، وأن يدفع السيئة بالحسنى ، وأن يستعيد بالله من الشياطين التي تقودهم إلى الضلال ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨] ، ثم يستطرد السياق في ذكر مشهد من مشاهد القيامة منتهيا بتقرير الألوهية الواحدة وبنفي الفلاح عن الكافرين في مقابل إثباته للمؤمنين في فاتحة السورة ، ثم بتوجيه الرسول ﷺ إلى ربه لطلب المغفرة والرحمة؛ فهما معا قوام الفلاح في الدنيا والآخرة. وهكذا شكّل السياق مع المناسبة بين الآيات ثنائيا بديعا في نظم الآيات والتحام أجزائها، وفي اتساق معاني السورة وتتابع أفكارها .

المبحث الثاني : الإيقاع العام للآيات .

يُعَدُّ الإيقاع من أهم مكونات النظم القرآني ، وخصيصة مهمة في تشكيل أدائه ؛ ومن ثم فهو بناء مهم من الأبنية العليا المميّزة للنص القرآني ، هذا الإيقاع إذا تلمّسه القارئ أحسَّ له خفة على اللسان ، وراحة في الأذن ، وقبولا في النفس يقترب به مما يجده من ذلك لوزن الشعر^(١) ؛ إذ يرى فقهاء اللغة العربية أنها لغة شاعرية ، وأنها من أكثر اللغات انسجاما مع الشعر والفن ، وتلبية للأحاسيس الإنسانية ، وتوافقا مع مقاييس الجمال^(٢) ؛ فهي لغة مبنية على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية ، وهي في حملتها " فن منظوم منسق الأوزان والأصوات "^(٣) ، إلا أن النسق القرآني

قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعا ، " فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة ؛ فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة ، وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية ، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل ، والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي ... فنشأ النثر والنظم جميعا " (٤) .

وَيُنظر إلى الإيقاع في القرآن الكريم على أنه تواترات صوتية وأسلوبية في نظمه ، تبدو أحيانا على شكل تردد بسيط ، وأحيانا على شكل تردد متعدد يقوم على التوازي والانتظام ، وأحيانا يخالف التوقع لغاية يتطلبها النظام (٥) ، وهذا ما أكسب النص القرآني خصوصية جعلته متميزا عن سائر النصوص الأدبية الأخرى ؛ فأصبح طيعا للترتيل ، لا تمجُّه الأذن ، ولا تملُّه النَّفس .

مظاهر الإيقاع في سورة " المؤمنون " .

تعددت مظاهر الإيقاع في سورة " المؤمنون " ، وتوزَّعت بصورة دقيقة بين الشدة واللين ، والسرعة والبطء ، والطول والقصر ؛ فبدت متناسقة مع جو السورة ومضمونها؛ ومن ثم أدت وظيفة أساسية في البيان والتماسك ، ومنها ما يأتي :

١- إيقاع الحركة الإعرابية .

تفرَّدت اللغة العربية بين لغات العالم بخاصة فنية وهي الإعراب ، ويرى أناس من مؤرخي اللغات أن الإعراب أثر من آثار استخدام الحركة في التعبير عن المعنى (١) ، فالحركة الإعرابية تُكسب المفردات قيمة فنية ؛ لأنها تزيد من وضوح التناغم الموسيقي بينها ، يقول العقاد : " فإن هذه الحركات والعلامات تجري مجرى الأصوات الموسيقية وتستقر في مواضعها المقدورة على حسب الحركة والسكون في مقاييس النغم والإيقاع " (٢) . وبهذا تُعدُّ الحركة الإعرابية مظهرا من مظاهر الإيقاع ، ومنها ما ورد في قوله تعالى : ﴿ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٩] ، فإتيان (جناتٍ ، نخيلٍ ، أعنابٍ) بالكسر أحدث تماسكا صوتيا بين هذه المفردات ؛ فازدادت بهذا التماسك نغمة

الإيقاع ، فضلا عما أحدثه التنوين من التطريب المألوف ؛ لأنه نون ساكنة زائدة في آخر الكلمة ، والنون الساكنة عنصر مهم من عناصر التطريب في الكلام . ومن ذلك أيضا ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] ، فالملاحظ أن تردد الفتحة - باعتبارها حركة إعراب أو علامة بناء - في أغلب مفردات الآيات السابقة جعلت المعنى ينساب في سهولة وخفة ، يُسَلِّمُ بعضه بعضا ، ويُمهِّد بعضه إلى بعض ؛ فجاءت الفاصلة - تبعا لذلك - ممكنة في مكانها ، مطمئنة في قرارها ، متعلقة بمضمون الكلام أتمّ التعلق ، وهذا هو الإيقاع التام والانسجام المحكم الذي جعل الصحابي الجليل معاذ بن جبل يبادر بقوله : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

٢- إيقاع الحروف .

تتميز أصوات الحروف في اللغة العربية بصفات متعددة ، كالاستعلاء ، والصغير ، والهمس ، والإطباق ، والتفشي ، وغير ذلك ، وتساعد هذه الصفات في إنتاج إيقاعات موسيقية متنوعة ، تُلقِي ظِلَهَا في النَّفْس ، وتؤدي دورا مهما في توضيح المعنى .

وإن وضع الحرف بصفاته في المفردة القرآنية معجزٌ في حدِّ ذاته ؛ فهو رابط لها بدلالاتها لتكون هي رابطة بأصواتها لمضمون الآية التي ترد فيها ؛ وبهذا يتحقق الإيقاع الحرفي في القرآن الكريم ، وهو ما يلاحظ بالتأمل في سورة "المؤمنون" ؛ إذ انبثقت ألوان متعددة من الدلالات والإيحاءات من خلال محاكاة أغلب مفرداتها بأصواتها لمعناها ، مع ملائمة ذلك للسياق على نحو لا يمكن معه استبدال غيرها بها . ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٤، ٦٥] ، فالكلام تهديد لأهل مكة بعذاب سيحل بهم يجأرون منه ، ونُحْصِ المترفون منهم بهذا

العذاب ؛ لأنهم هم الذين أضلُّوا عامة قومهم ، كما أنهم أشدَّ إحساسا بالعذاب من غيرهم ؛ إذ لم يعتادوا مسَّ الضراء والآلام^(١) ، ويعبِّر السياق القرآني عن مفاجأة أولئك العامة بذلك العذاب بقوله : ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأُرُونَ ﴾ ، ولم يقل : يصرخون ، ولا يستغيثون ؛ إذ إن الجؤار يعبر عن الحالين معا ؛ لأنه رفع الصوت بمرارة واستغاثة ، فهم يصرخون ذلا وانكسارا وجزعا من غير مراعاة لنخوة^(٢) ، حتى كانت استغاثتهم أشبه شيء بأصوات الحيوانات . وهذا ما دلت عليه مادة الكلمة (الجيم - الهمزة - الراء) ؛ إذ أوحى الجيم - بقرب انفجارها ؛ فهي صوت يكاد يكون انفجاريا^(٣) - بارتفاع صوته واستغاثتهم شيئا فشيئا ، ثم تأتي الهمزة بشدتها وتقام انفجارها لتؤكد تماديهم في إذلالهم واستغاثتهم ، ويأتي صوت الراء أخيرا ليدل على تكرار ذلك منهم واعتيادهم عليه .

ومن ذلك أيضا إيثار النص القرآني التعبير بكلمة " تلفح " بدلا من " تنفح " في قوله تعالى : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] ، قال الزجاج : " يلفح وينفح في معنى واحد ، إلا أن اللفح أعظم تأثيرا "^(١) ، لكن المتأمل يجد أن اللفح هو الإصابة بشدة ، أما النفح فهو مجرد المسّ ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٦] ، وعلى الرغم من أن اللام والنون صوتان مجهوران متوسطان بين الشدة والرخاوة^(٢) - وهما ينتميان إلى مجموعة صوتية واحدة وهي الأصوات الذلقية ، ويشتركان في نسبة وضوحهما السمعي ؛ فهما من أوضح الأصوات الساكنة في السمع - آثر النص القرآني التعبير بـ " اللام " بدلا من " النون " ؛ لأن اللام فيها من التبكيت والشدة والإحكام ما لم يكن في النون ؛ لأن من أحكام النون الساكنة قبل الفاء - في التجويد - الإخفاء ، وهذا الإخفاء الذي لم يكن في اللام وبمقتضاه يقلل الوضوح السمعي ربما يوحي بخفة تأثير النار وقلة وطأتها على أولئك الكافرين المخلدن فيها ، ولهذا اعتمد النص القرآني في هذا السياق على حرف يتوافر فيه الوضوح السمعي ؛ فحصل به الوقع والإيقاع جميعا معا .

ومن ذلك أيضا ما ورد في قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِرُ صَوْنَ ﴾ [المؤمنون: ٦٦] ؛ إيقاع " تنكصون " بمادتها (ن - ك - ص) يختلف اختلافا بيّنا عن إيقاع " ترجعون " ؛ فالنكوص هو رجوع القهقري ، وهو أقبح مشية ؛ لأن الناكص لا يرى ما وراءه من الكبر والبطر . وكذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ اخْسُئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] ، فلا نجد أبلغ من مادة " خسأ " في الدلالة على الطرد والإبعاد والزجر بهوان كما تترجر الكلاب إذا زُجرت .

ولا يخفى ما أوحى به حرف " الثاء " من معنى البعثرة والتطاير والانتشار في كلمة " غثاء " في قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤١] ؛ إذ إن " الثاء " من الأصوات المهموسة ، والهمس من علامات الضعف الصوتي ، وقد حاكى هذا الضعف الصوتي ذلك الضعف المعنوي الكامن فيمن أخذهم الصيحة ، فصاروا كالحشائش المبعثرة ، والأعشاب المنتشرة التي يحرفها السيل ولا خير فيها ، ولا قيمة لها ، ولا رابط بينها سوى المال .

ولا يخفى كذلك ما أحدثه اختطاف بعض الحروف من محافظة على إيقاع الكلمات في الآيات ، كاختطاف " ياء المتكلم " من كلمة " رب " في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِمَّا تُرِيتُنِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٩٣، ٩٤] ، وكاختطافها من آخر بعض الفاصل ليستوي الإيقاع بحذفها ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٨، ٩٩] . وغير ذلك كثير من المفردات التي امتلأت بها سورة "المؤمنون" وجاءت متميزة بإيقاعها عن سواها ، ومعبرة بأصواتها عن الكثير من الدلالات الملائمة للسياق .

٣- إيقاع البنية .

إن تكرار بنية الكلمة أو ما يتصل بها من سوابق ولواحق يحدث نوعا من الانسجام والتناغم بين المفردات ؛ مما يجعل الآيات طيّعة في حفظها ؛ فكلما ازداد

عدد الحروف المتجانسة بين المفردات ارتفع المستوى الإيقاعي بينها ، ومن ذلك ما ورد في آيات صفات المؤمنين في مفتتح السورة ، إذ تبدأ كل آية بعد الآية الأولى باسم الموصول " الذين " وهذا ما يُسمى عند البلاغيين ببراعة الاستهلال ، وقد ساعد ذلك في تماسك الآيات من ناحية ، وفي تحقيق الإيقاع بينها من ناحية أخرى. ومن ذلك أيضا تكرار بعض الضمائر المتصلة ببعض المفردات على مسافات تُحدث ما يُشبه الموسيقى الداخلية بين الآيات ، فتزداد بذلك درجة الإيقاع ، كقوله تعالى : ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (المؤمنون:٦) ، وقوله : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون:٨] . وقد ازداد المستوى الإيقاعي بالبنية في فواصل السورة ؛ إذ جاءت فواصلها إما نونية مسبوقة بالواو المدية أو الياء المدية أو ميمية مسبوقة بالياء المدية ؛ لينتهي بذلك مقطع الفاصلة بعناصر التطريب التي تساعد في تلاحم الفواصل من الناحية الصوتية .

ومن ناحية أخرى نجد أن السياق القرآني في سورة " المؤمنون " - وكذلك في النص القرآني كله - قد اختار صيغه بعناية فائقة ، ووَضَعَهَا موضعها الملائم لها ، بحيث إذا خرجت عنه أو استبدل غيرها بها لأخلَّ ذلك بجمال التعبير ، واتساق النظم ، وروعة الإيقاع . ومن ذلك مثلا صيغة " فعالة " بما تدل عليه من القلة كالقلامة والقصاصمة والقمامة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢] ، فكلمة " سُلالة " بهذه البنية تدل على عظمة الخالق في خلقه ، وجمال استخلاصه الإنسان من الطين برفق ولطف حتى كان على نهاية الاعتدال .

ومن ذلك أيضا إثار النص القرآني التعبير عن إيتاء الزكاة بصيغة " فاعلون " في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون:٤] ، ولم يقل : مؤتون ، ولا مخرجون ، ولا مؤدُّون ؛ إيثارا للاسم الأعم ؛ لأن مادة (ف ع ل) مشتهرة في إسداء المعروف ، وربما دلَّت على السرعة في فعل ذلك ، وعلى هذا جاء قول أمية بن أبي الصلت :

المطعمون الطعام في السنة الأزمة والفاعلون للزكوات^(١)

ومنه كذلك التعبير بالصفة المشبهة "فعل" في قوله تعالى : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣] ، فدلَّ بصيغة "فرحون" على شدة مسرة كل فريق بدينه من بعد تحرُّبهم ، وكان في ذلك تعريضا بأن فرحهم لم يكن عن دليل أو تبصُّر ، وإنما كان لجرد العكوف على المعتاد ، وتأمل اختيار صيغة "تقطَّعوا" ، والتي دلَّت على الشدة في حصول الفعل ، أي المبالغة في شدة اختلافهم وتفرُّقهم على نحل كثيرة ، فقد جعل كل فريق منهم لنفسه دينا .

وتأمل كذلك اختيار القرآن للتعبير بالفعل على الاسم في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩] ؛ ليدل بذلك على حرص المؤمنين ومدوامتهم على صلواتهم تامة بمفروضاتها ومسنوناتها في أوقاتها ، وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٨] ، وكان بإمكانه أن يقول : " مؤمنون " رعاية لنسق ما قبلها في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧] ، ولكن أثر السياق بالفعل على الاسم ؛ ليدل به على أن إيمانهم لا يزال يتحدد ، بل لا يزال يزداد بآيات الله التي لا تُعدُّ .

وتأمل أيضا اختيار القرآن للتعريف والتنكير في مواضع لا يمكن الاستبدال أو الخلط بينها ، كتنكير كلمة " حين " في قوله تعالى : ﴿ فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٤] ، الذي دلّ على الإبهام ، وجُعِل غاية لاستدراج مشركي قريش ، والإملاء لهم ، وإنذارهم بما يستقبلهم من سوء العاقبة في وقت غير معلوم . وكتعريف كلمة " قوم " وتنكيرها في قوله تعالى : ﴿ فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤١] ، وقوله : ﴿ فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٤] ، فعرفها في الأولى ليكون الطرد والإبعاد شاملا ومستغرقا لهم جميعا دون استثناء لأحد ، ونكّرها في الثانية للدلالة على خِسَّة أولئك القوم وحقارتهم ، فحصل بالتعريف والتنكير مذمة الكفر ومذمة عدم الإيمان بالرسول .

وتأمل الفعلين : " لجؤا ، ويعمهُون " في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٥] ، فقد دلَّ الأول

على التماذي في العناد ، ودلّ الثاني على مداومة التردد والتحيّر ، وكذلك الفعل المضارع " تذكّرون " بحذف إحدى التاءين ، والأصل : تتذكّرون ، في قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ لِلّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٥] ؛ وذلك ليناسب الإيقاع السريع والنعمة الصاعدة بالاستفهام الإنكاري التوبيخي .

وانظر كذلك إلى جمال الإيقاع بصيغة " تترى " في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ﴾ [المؤمنون: ٤٤] ، والذي لا يمكن أن تقوم به صيغة غيرها ، وإلى صيغة " ملكوت " بزيادة الواو والتاء مبالغة في الملك العظيم والعزّ والسلطان ، في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَبْدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [المؤمنون: ٨٨] ، وإلى وقع كلمة " سِخْرِيًّا " وإيثارها على " سُخْرًا " في قوله تعالى : ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٠] ؛ فقد انتظم الإيقاع بها ، واتسق المعنى بباء النسب التي دلّت على الزيادة في قوة الفعل .

وتأمل كذلك اختيار النص القرآني للمصدر " شِقْوَةٌ " بدلا من " شقاء " و" شقاوة " في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦] ؛ فهو المصدر - من بين تلك المصادر - الذي يبدأ بمقطع مقفّل ، ويخلو من الألف المدية ، وهذا يُحاكي مدى ما يعانون من التعب والضنك والشقاء، أما المصدران الآخران فقد اشتملا على تلك الألف ، والألف من الحروف المتسعة لهواء الصوت ، أي تحتاج إلى نفسٍ طويل ، وهذا يتنافى مع ما هم فيه ، فضلا عن أن " شِقْوَةٌ " " فِعْلَةٌ " يشبه بهذه البنية بنية مصدر الهيئة ، وكأن الشقاء صار هيئة مميزة لهم عن غيرهم .

وإذا حاولنا الإتيان بصيغ بدلا من الصيغ السابقة - (سُلالَة ، فاعلون ، تقطّعوا ، فرحين ، يحافظون ، يؤمنون ، حين ، لجوا ، يعمّهون ، تذكّرون ، تترى ، ملكوت ، سِخْرِيًّا ، شِقْوَتُنَا)- ما رأينا السياق يعود إلى ما كان عليه من الألفة والانسجام وجمال الإيقاع ، وما ردّ علينا الذي كنا نجده بتلك الكلمات من المعاني والدلالات.

٤- إيقاع التركيب .

هو عبارة عن تكرار بعض الأنماط النحوية في مجموعة من الجمل المتتالية بشكل متماثل في الطول والنعمة والبناء النحوي ؛ فيحصل بذلك نوع من الإيقاع المحبّب

الذي تألفه أذن السامع ، ومن ذلك ما ورد في صفات المؤمنين في بداية السورة ، إذ جاءت بعض الصفات في تركيب نحوي واحد مكون من [اسم موصول (الذين) + ضمير منفصل (هم) + جار ومجرور + جمع مذكر سالم (اسم فاعل)] ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢-٥] ، فإتيان هذه المعاني المتلازمة في جمل مستوية المقادير قد ساعد بشكل كبير في تحقيق الإيقاع بين الآيات وازدياد التماسك بينها .

٥- إيقاع السياق .

تعددت السياقات في سورة "المؤمنون" ؛ ومن ثم تنوعت إيقاعاتها ، فلكل سياق إيقاع يناسبه ويميزه عن غيره ، فقد يطول الإيقاع أو يقصر ، أو يشتد أو يلين ، أو يبطئ أو يُسرع ، وذلك كله مرهون بالفكرة التي يحتويها السياق . والمتأمل في سياق صفات المؤمنين في الآيات السابقة يشعر بالإيقاع اللين الهادئ المحفوف بالسكينة والطمأنينة ، والملائم للوعد بفلاح المؤمنين وللبشارة بارتقائهم في مدارج الكمال الذي لا يتحقق للإنسان إلا بالخلود في الفردوس ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١] . ويتلون الإيقاع بالانتقال إلى سياق آخر ، كسياق تقرير الألوهية والوحدانية لله سبحانه في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِمَنَ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩] ، إذ يطول الإيقاع عما كان ، ولكنه مع طوله سريع ذو نغمة صاعدة من خلال الأساليب الإنشائية المتكررة التي تهدف إلى إنكار فعل المشركين وتوبيخهم عليه ، وتقرير الألوهية والاعتراف بالوحدانية لله سبحانه .

وفي سياق العرض على الميزان نجد لونين من الإيقاع : أولهما : في قوله تعالى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢] ، وهو إيقاع سريع

وقصير ، والنتيجة فيه حاسمة قاطعة بالفلاح ؛ فتقل الميزان يعنى الفلاح ، لا شيء دون ذلك ، وكل شيء لهم بعد ذلك من الرضوان والخلود في الفردوس ، والنعيم الذي أعدّه الله لعباده المؤمنين . والثاني : في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿ [المؤمنون: ١٠٣-١١٠] ؛ إذ يأتي الإيقاع مع هذه الآيات طويلا وبطيئا ، ولم تكن النتيجة فيه حاسمة وسريعة مثلما كانت في الإيقاع الأول ، ولو كانت كذلك لقليل : " وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ " ، إلا أن السياق يقتضي مزيدا من التبكيت والتقريع والتحسر لأولئك الخاسرين ، والتذكير بأعمالهم التي أدت بهم إلى تلك النهاية البائسة ، والتي لا رجاء ولا أمل في الخلوص منها ، وذلك كله لا يكون إلا بتراخي الإيقاع وبطئه.

وهكذا كان الإيقاع - باختلاف مظاهره وتلون دلالاته - عنصراً مهماً من عناصر الأبنية العليا في سورة "المؤمنون" ، وصورة للتناسق الفني فيها ، ومظهراً من مظاهر تصوير معانيها .

المبحث الثالث : فواصل الآيات .

الفاصلة هي آخر كلمة في الآية كقافية الشعر وقرينة السجع^(١) ، وتقع عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها ، وهي الطريقة التي يبين القرآن بها سائر الكلام ؛ ولذلك كان اختيارها محكما من ناحية أصواتها وبنائها ومراعاتها لمضمون آيتها ؛ ومن ثم كانت من ضروب الإعجاز اللغوي والبلاغي في القرآن الكريم . وتسمى فواصل ؛ لأنه يفصل عندها الكلامان ، وذلك أن آخر الآية فصل ما بينها وبين بعدها ، وأخذاً من قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ [فصلت: ٣]^(٢) .

دور الفواصل في تماسك الآيات .

تميّزت الفواصل في سورة "المؤمنون" بتمثالها ، وتوازيها ، وتوازنها ؛ فأدّت بذلك دوراً مهماً في تماسك الآيات صوتياً وإيقاعياً ودلالياً ؛ ومن ثم كانت من أهم عناصر الأبنية العليا المكونة للسورة ، وقد تمثل الدور الذي أدته الفواصل فيما يأتي :

١- الحروف التي جاءت رويّاً للفواصل .

بُنيت الفواصل في سورة "المؤمنون" على حرفين متقاربين في المخرج والصفة ، وهما : الميم ، والنون ، وجاءت " النون " مُشكّلة لأغلب فواصل الآيات ، وذلك في (١١٤) مائة وأربع عشرة فاصلة ، بنسبة ٩٦,٦% من مجموع الفواصل كلها ، وجاءت " الميم " في أربع فواصل فقط بنسبة ٣,٤% ، والنون والميم ينتميان إلى مجموعة صوتية واحدة ؛ فهما صوتان مجهوران متوسطان بين الشدة والرخاوة ، وهما أهم حروف الترنم في العربية لما يحدثان من ذبذبة للوترين الصوتيين أثناء النطق بهما^(٣) ، فضلاً عن أنهما سُبِقا في كل الفواصل بأحد حرفي المدّ : (الواو أو الياء)؛ تمكّناً من الترنم والتطريب ؛ لأن حرف المدّ مؤذنٌ بالوقوف ومؤدٌّ إلى الراحة والسكون ، وكلما جاور الروي كان آنسَ به وأشدَّ إنعاماً للمستمع^(٤) ، وبهذا أحدث ورود النون والميم بعد أحد حرفي المدّ : (الواو أو الياء) بصورة متواكبة إيقاعاً صوتياً متحلّياً في فواصل السورة كلها ومساعداً في تماسك الآيات وتلاحم أبنيتها .

٢- عناصر السبك الصوتي في الفواصل .

لكي يظلّ هذا الإيقاع متواتراً ومتحدّاً - بانتهاء الفواصل بأحد المقاطع الطويلة - انتظمت فواصل الآيات في الأبنية الآتية :

١-٢ بنية جمع المذكر السالم في حالاته الإعرابية الثلاث : الرفع ، كقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١] ، والنصب ، كقوله تعالى : ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون:١٠٦] ، والجر ، كقوله تعالى : ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون:١١٨] .

٢-٢ بنية جمع التكسير المنتهي بالياء والنون ، كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ [المؤمنون:٩٧] .

٣-٢ بنية الأفعال الخمسة في حالاتها الإعرابية الثلاث : الرفع ، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون:٩] ، والنصب مع اتصالها بياء المتكلم المحذوفة والموقوف فيها على نون الوقاية كقوله تعالى : ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون:٩٨] ، والجزم مع اتصالها بياء المتكلم المحذوفة ، والموقوف فيها على نون الوقاية كقوله تعالى : ﴿ قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون:١٠٨]

٤-٢ بنية الفعل الماضي المسند إلى واو الجماعة والموقوف فيه على نون الوقاية المحركة بالكسر علامة على ياء المتكلم المحذوفة ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴾ [المؤمنون:٢٦، ٣٩] .

٥-٢ بنية فعل الأمر المسند إلى واو الجماعة ، والموقوف فيه على نون الوقاية المحركة بالكسر علامة على ياء المتكلم المحذوفة ، كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ [المؤمنون:٩٩] .

٦-٢ بنية المفرد الذي تُعَدُّ الياء والنون أو الياء والميم من حروفه ، كقوله تعالى : ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون:٢٥] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المؤمنون:٧٣] .

وتشترك هذه الأبنية جميعاً في انتهائها بمقطع طويل ساعد في حدوث توافق صوتي بين الآيات ، وفي انتظام إيقاعها الموسيقي على نحو لا نجد معه أثراً للخلل في الإيقاع أو لرتابة فيه ؛ لأنه سرعان ما يتلون الإيقاع بانتقاله من بنية إلى أخرى .

وبتوالي هذه الأبنية وتكرارها نشأ بينها ثلاثة أشكال نبه إليها البلاغيون في تقسيماتهم للفاصلة القرآنية^(١) ، وهي :

أ- التوازي ، وهو اتفاق الكلمتين في الوزن والروي ، وهذا - بما يتضمنه من تكرار القلب الصوتي وإعادة حرف الروي - يؤدي إلى إثراء المعنى إثراءً صوتياً ينشط له

ذهن السامع ويزداد به شغفا ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥، ٤) ، وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٣، ١٠٤] .

ب- التوازن ، وهو مراعاة الوزن فقط في مقاطع الكلام دون اتفاق في الروي ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥٠، ٥١]

ج- التطريف ، وهو ما اتفقت فيه الأعجاز في الروي دون الوزن^(٢) ، كقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] .

ولا يخفى ما في الانتقال بين هذه الأشكال من تنوع للإيقاع وخلط بين الأنغام؛ إذ يخرج السياق من الفواصل المتوازنة إلى المتوازنة أو المطرقة ليقدم لنا في النهاية لحنا موسيقيا فريدا .

٣- وحدة البنية الإيقاعية في الفواصل .

مما سبق يتضح أن القارئ لسورة " المؤمنون " يشعر بتمام الانسجام وعظيم المناسبة بين فواصلها ، ولم تكن هذه المناسبة من ناحية الإيقاع فحسب ؛ لأنه ما من فاصلة إلا وجاءت ملائمة لمضمون آيتها حتى إذا تكلف مُتكلِّفٌ أن يستبدل بها غيرها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وبهذا تحققت المناسبة الإيقاعية والدالية جميعا معا وقد حافظ النص القرآني على سلامة البنية الإيقاعية في فواصل السورة من خلال ما يأتي:

٣-١ التقديم والتأخير .

تسير عناصر الجملة في اللغة العربية وفق نظام معين ، فلكل عنصر رتبته الخاصة من حيث التقديم والتأخير وفصله عن غيره من العناصر ، ولم يكن هذا النظام جامدا بحيث لا يسمح بالتغيير فيه ، وإن كان هناك ترخيص أو سماح بالتغيير فهو مشروط

بأمن اللبس وانفهام المعنى . وقد أدرك علماءنا القيمة البلاغية للتقديم والتأخير ، قال الجرجاني : " هو باب كثير الفوائد ، جمُّ المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتّر لك عن بديعة ، ويُفضي بك إلى لطيفة " (١) .

وكان للحفاظ على بناء الفاصلة القرآنية في سورة " المؤمنون " دورٌ كبير في تغيير رتبة الكلام ، فضلا عما وراء ذلك من بدائع ولطائف لا تُدرك إلا بالتأمل وإمعان النظر ، كالاتتمام الذي دل عليه التقديم في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢] ، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩] ؛ إذ يؤذن هذا التقديم بأن للمؤمنين تعلقا شديدا بالصلاة ، فضلا عما توحى به الإضافة في " صلاتهم ، وصلواتهم " من كمال الارتباط والتعلق ؛ لأن من شأن الإضافة أن تفيد شدة الاتصال بين المضاف والمضاف إليه ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٠] ، فقد تقدم المتعلق " للحق " على الخبر " كارهون " ؛ اهتماما بذكر الحق ، حتى يستوعبي السامع ما بعده فيقع حسن سماعه من نفسه موقع العجب من كارهيه (٢) .

أو كالاختصاص الذي دل عليه تقديم المتعلق في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٣] ، أو كالتنبية على طول الإحسان والإنعام الذي أفاده التقديم في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] .

وقد وقع التقديم والتأخير في إحدى وأربعين فاصلة بنسبة ٣٤,٧% من مجموع فواصل الآيات ، والسمة الغالبة على هذه المواضع أن يتقدم فيها متعلق الخبر عليه ، أو متعلق الفعل عليه ، فمن مواضع تقدم متعلق الخبر عليه قوله تعالى :

- ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ (٢)
- ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (٣)
- ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ (٤)
- ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (٥)
- ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (٨)
- ﴿ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١١)

- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ (١٥)
- ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (١٧)
- ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ (١٨)
- ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ (٣٤)
- ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ (٣٥)
- ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٨)
- ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ (٤٧)
- ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١)
- ﴿كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٣)
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧)
- ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٦٠)
- ﴿وَهُمْ لَهَا سَاقِبُونَ﴾ (٦١)
- ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ (٦٣)
- ﴿فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٦٩)
- ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (٧٠)
- ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرَضُونَ﴾ (٧١)
- ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاجِبُونَ﴾ (٧٤)
- ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (٧٧)
- ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ﴾ (٩٥)
- ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١٠٣)
- ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (١٠٤)

ومن مواضع تقديم متعلق الفعل عليه قوله تعالى :

- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩)
- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (١٦)

- ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاحِشٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (١٩)
- ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢١)
- ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٢٢)
- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٨)
- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩)
- ﴿لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْهُ لَا تَنْصِرُونَ﴾ (٦٥)
- ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكِصُونَ﴾ (٦٦)
- ﴿لَلْحُجَا فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥)
- ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٩)
- ﴿فَكُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ (١٠٥)
- ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ (١١٠)
- ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥)

٢-٣ الحذف .

قضية الحذف من القضايا المهمة التي تربط الدراسات النحوية بالدراسات البلاغية والأسلوبية والنصية ، فكما كان للفاصلة دور في تغيير رتبة الكلام بالتقديم والتأخير ، فإن لها دورا مهما في حذف بعض عناصر هذا الكلام ؛ وذلك حفاظا على وحدة البنية الإيقاعية في أواخر الآيات ، ومن ذلك :

١-٢-٣ حذف المفعول به .

يُحذف المفعول به كثيرا في اللغة بحيث لا يختل المعنى أو يفسد بحذفه ، بل جعله ابن جني من سمات حذاق اللغة ، إذ يقول : " وحذف المفعول كثير ، وفصيح ، وعذب " ، ولا يركبه إلا من قوي طبعه ، وعذب وضعه ^(١) . وجعل النحاة من أغراض حذف المفعول به المحافظة على تناسب الفواصل نحو قوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] ، أي : سابقون الناس إليها ، وكذلك قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنَّ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٤] ، أي : لو كنتم تعلمون مقدار لبثكم ، ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

[المؤمنون: ٨٥] ، أي : أفلا تتذكرون ما غفلتم عنه من تمام قدرته وباهر عظمته ، فحُذِفَ المفعول به فيما سبق للعلم به من السياق ، ومراعاةً لإيقاع الفواصل .

٣-٢-٢ حذف العائد من جملة الصلة .

في تعريف النحاة للموصول قالوا : هو ما لا يتم جزءاً إلا بصلةٍ وعائدٍ ، وهذا العائد هو ضمير يعود على الموصول ؛ لأن ما تتضمنه الصلة من الحكم يتعلق بالموصول ، ومن ثم لا بد من ذكر نائب الموصول في الصلة ليتعلق الحكم بالموصول بسبب تعلقه بنائبه ، وذلك النائب هو الضمير العائد إليه ، ولولا هذا العائد لبقى الحكم أجنبياً عن الموصول ؛ لأن الجمل مستقلة بأنفسها لولا الرابط الذي فيها^(١) .

ويجوز حذف هذا العائد من الصلة بشرط وضوح المعنى وأمن اللبس كحذفه للعلم به ولرعاية نسق الفواصل في قوله تعالى : ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] ، أي : مما تشربون منه ، فحُذِفَ هنا للاستغناء عنه بنظيره في الصلة المذكورة قبلها ، ولتوافقِ الفواصل بهذا الحذف ، وكذلك قوله : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] ، أي : عما يصفونه ، وقوله : ﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٣] ، أي : ما يوعدون به من العذاب .

٣-٢-٣ حذف ياء المتكلم .

حُذِفَت ياء المتكلم في خمسة مواضع في فواصل الآيات محافظةً على رويِّ الفواصل وسلامة البنية الإيقاعية ، ومن ذلك حذفها من آخر الفعل الماضي المسند إلى واو الجماعة والموقوف فيه على نون الوقاية كقوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي﴾ [المؤمنون: ٢٦] ، وحُذِفَت من آخر الأفعال الخمسة المسندة إلى واو الجماعة في حالتي النصب والجزم ، مع الوقوف فيها على نون الوقاية ، فمن النصب قوله تعالى : ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٨] ، ومن الجزم قوله تعالى : ﴿قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] ، وحُذِفَت كذلك من آخر فعل الأمر المسند إلى واو الجماعة والموقوف فيه على نون الوقاية كقوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] .

٣-٢-٤ حذف متعلق الفعل .

وذلك كقوله تعالى: ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٣]، أي : وما يستأخرون عنه ، فحذف من أجل الفاصلة ، والسبب نفسه جاء الفعل " يستأخرون " على صيغة الجمع ، ولم يقل : تستأخر ؛ حملا على المعنى مع التغليب .

٣-٢-٥ حذف معمول اسم الفاعل .

وذلك في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠] ، فحذف معمول " الوارثون " ليحصل إبهام وإجمال^(١) ؛ فيترقب السامع بيانه ، فبيّن بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١] ؛ قصداً لتفخيم هذه الورثة ، والإتيان في البيان باسم الموصول الذي شأنه أن يكون معلوماً للسامع بمضمون صلته ؛ إشارةً إلى أن تعريف " الوارثون " تعريف العهد ، كأنه قيل: هم أصحاب هذا الوصف المعروفون به ، فضلاً عما وراء هذا الحذف من حفاظ على نسق الفواصل .

٣-٣ عطف المضارع على الماضي .

اشترط النحاة في عطف الفعل على الفعل أن يتحدا في الزمان ، أي في الماضي، أو الحال ، أو الاستقبال ؛ وذلك لأن العطف نظير التثنية ، فكما لا يجوز تثنية المختلفين ، لا يجوز عطف المختلفين في الزمان ، قال أبو حيان : " وهذا من حمل الأصل على الفرع ؛ لأن العطف أصل التثنية "^(٢) . ولكن قد يتعاطف الفعلان إذا اتحدا زماناً مع اختلافهما نوعاً ، كعطف الماضي على المضارع في قوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ [هود: ٩٨] ؛ لأن أوردتهم بمعنى يوردهم ، وكعطف المضارع على الماضي في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاثُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦] ، فعدل عن الماضي " تضرعوا " إلى المضارع " يتضرعون " لأمرين : أولهما : الحفاظ على النسق الموسيقي لفواصل الآيات ، ولو قيل : تضرعوا لأحسنا بما يشبه الكسر في وزن الشعر ، ثانيهما : أنه عدل إلى المضارع ليعبر به عن دوام حالهم على ذلك ، مع إفادة المضارع معنى الماضي في الإقرار ، أي أنهم ليس من عادتهم التضرع إلى الله ؛ لأنهم جُبلوا على ما هم عليه من العُتُوِّ والاستكبار .

٣-٤ خطاب الواحد بلفظ الجمع .

وذلك في قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٩] ، فجاء الفعل " ارجعون " بضمير الجمع مع أن المخاطب واحد ، وهو الله سبحانه ، والقول في ذلك إما للتعظيم ، أو لأن الموقف يدل على الاستغاثة ، فكأن قائلهم قال : ربّ ؛ استغاثة بالله ، ثم التفت إلى مخاطبة الملائكة فقال : ارجعون^(١) ، ولا يخفى ما يحدثه الالتفات من تنوُّع الأسلوب ، ومنع سير الكلام على وتيرة واحدة ، فينشط له ذهن القارئ أو السامع ، أو لأن معنى " ارجعون " على جهة تكرير اللفظ ، والمراد من ذلك : ارجعني ، ارجعني ، ارجعني ، فجعلت الواو علماً مُشْعِراً بأن المعنى تكرير اللفظ مراراً ، كما كانت الألف دالة على ذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ [ق: ٢٤] ، قال المازني : معناه : ألق ، ألق ، وهكذا قيل في قول امرئ القيس :

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل *

فالمراد به : قف ، قف^(٢) . وهذا ما أرجحه ؛ إذ إن الواو في صيغة " ارجعون " بمثابة التأكيد للفعل وما يتضمنه من إقرار بالذنب والندم والتحسر على ما فات بعد أن أيقن المتكلم بالموت واطَّلَعَ على حقيقة الأمر ، ومن رجاء في الرجعة للعمل الصالح وإعلان التوبة بغية العفو من الله ، كما لا يخفى ما أحدثته هذه الصيغة من اطراد الإيقاع الموسيقي بين فواصل الآيات ؛ فبصيغة الجمع التي تقتضي إثبات واو الجماعة والوقوف على نون الوقاية تتوازي هذه الفاصلة مع فواصل الآيات السابقة واللاحقة .

وهكذا شكَّل الحذف في فواصل السورة دوراً مهماً في الحفاظ على بنيتها الإيقاعية ، وقد ساعد ذلك في حدوث تماسك صوتي على مدار الآيات.

خاتمة

في ختام هذه الدراسة نستخلص أهم نتائجها والتي قد تمثلت فيما يأتي :

- ١- ضرورة التعرف على الأبنية العليا المكونة للنص قبل الشروع في تحليله ؛ فهي جزء لا يتجزأ عن عملية التحليل النصي .

- ٢- للأبنية العليا دور مهم في تحقيق التماسك النصي من خلال ما يشتمل عليه النص من مؤشرات تدل عليها ، وهذا يعني أن الأبنية العليا لم تكن واحدة مع اختلاف النصوص ، وإنما لكل نص أبنيته العليا التي تميزه عن غيره .
- ٣- لم يكن إعجاز النص القرآني مقصورا على اختيار ألفاظه ، أو نظم جملة ، أو رصف تراكيبه ، وإنما تعدى ذلك كله إلى أبنيته العليا المحكّمة والمميّزة عن باقي القوالب من شعر ونثر .
- ٤- تمثلت الأبنية العليا في سورة " المؤمنون " في ثلاثة عناصر رئيسة ، وهي : المناسبة ، الإيقاع ، الفواصل ، وقد تآزرت هذه العناصر جميعا معا في تماسك النسيج النصي للسورة ، وإحكام هيكلها .
- ٥- أدرك العلماء قديما قيمة المناسبة ودورها في تحقيق التماسك بين أجزاء الكلام ، على عكس علماء النصّ الحديثين الذين لم يُعولّوا عليها كثيرا في ذلك .
- ٦- شكّلت المناسبة مع السياق ثنائيا بديعا في نظم الآيات والتحام أجزائها ، واتساق معاني السورة وتتابع أفكارها .
- ٧- تعدّدت أنواع الإيقاع في سورة " المؤمنون " ، وتوزّعت بصورة دقيقة بين الشدة واللين ، والسرعة والبطء ، والطول والقصر ؛ فبدت متناسقة مع جوّ السورة ومضمونها ؛ ومن ثم أدّت وظيفة أساسية في البيان والتماسك .
- ٨- تميّزت الفواصل في سورة " المؤمنون " بتمائلها ، وتوازيها ، وتوازنها ؛ فأدّت بذلك دورا مهما في تماسك الآيات صوتيا وإيقاعيا ودلاليا ؛ ومن ثم كانت من أهم عناصر الأبنية العليا المكونة للسورة .
- ٩- شكّل الحذف في فواصل السورة دورا مهما في تماسك الآيات تماسكا صوتيا .

المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- آدمسيك (كيرستن) ، لسانيات النص ، ترجمة د. سعيد بحيري ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ٢٠٠٩ م .

- ٣- الآلوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود) ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
- ٤- أنيس (د . إبراهيم) ، الأصوات اللغوية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ١٩٨٤/٦ م .
- ٥- بحيري (د . سعيد حسن) ، علم لغة النص نحو آفاق جديدة ، مكتبة زهراء الشرق ، ط ٢٠٠٧/١ م ، القاهرة .
- ٦- براون - يول ، تحليل الخطاب ، ترجمة : د. محمد لطفي ، و د. منير التريكي ، نشر جامعة الملك سعود ، ١٩٩٧ م .
- ٧- البقاعي (برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر) ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة .
- ٨- الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد) ، دلائل الإعجاز ، بتعليق محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٢٠٠٤/٥ م .
- ٩- الجرجاني (الشريف علي بن محمد) ، التعريفات ، المطبعة الخيرية بمصر ، ط ١/دون تاريخ .
- ١٠- ابن جني (أبو الفتح عثمان) .
- الخصائص ، تحقيق: محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، تحقيق: علي النجدي ناصف وآخرين ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٩٦ م .
- ١١- حسان (د . تمام) ، البيان في روائع القرآن ، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني ، عالم الكتب ١٤١٣هـ/١٩٩٣ م .
- ١٢- خطابي (د. محمد) ، لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب) ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط ١/١٩٩١ م .
- ١٣- دي بوجراند (روبرت) ، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة د. تمام حسان ، عالم الكتب ، مصر ، ط ١/١٩٩٨ م .
- ١٤- الرضي (محمد بن حسن الرضي) ، شرح الكافية ، تعليق : يوسف حسن عمر ، منشورات جامعة قاروينس ، بنغازي ، ط ١٩٩٦/٢ م .
- ١٥- الزبيدي (السيد محمد مرتضى الحسيني) ، تاج العروس ، تحقيق : عبد العليم الطحاوي ، ط ١٩٨٧/٢ م ، مطبعة حكومة الكويت .
- ١٦- الزجاج (أبو إسحاق إبراهيم بن السري) ، معاني القرآن وإعرابه ، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلي ، عالم الكتب ، ط ١/١٩٨٨ م .

- ١٧- الزركشي (الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله) ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة دار التراث ، القاهرة .
- ١٨- الزناد (الأزهر) ، نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، ط ١٩٩٣م .
- ١٩- الزوزني (الحسن بن أحمد) ، شرح المعلقات العشر ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان .
- ٢٠- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) .
- تناسق الدرر في تناسب السور ، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١٩٨٦م .
- الاقتراح في علم أصول النحو ، تحقيق الدكتورين : أحمد سليم الحمصي ، ومحمد أحمد قاسم ، جروس برس ، ط ١٩٨٨م .
- معترك الاقوان في إعجاز القرآن ، ضبطه أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١٩٨٨م .
- ٢١- شبل (د. عزة) ، علم لغة النص النظرية والتطبيق ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ٢٠٠٧م .
- ٢٢- الشمايلة (د. عبد الله) ، الإيقاع في القرآن الكريم مظاهره ووظائفه ، مجلة فرقان الألكترونية ، الإصدار ٥٢ ، مايو ٢٠٠٦ ، و الإصدار ٥٣ ، يونية ٢٠٠٦م .
- ٢٣- ابن عاشور (الشيخ محمد الطاهر) ، تفسير التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر .
- ٢٤- العقاد (عباس محمود) ، اللغة الشاعرة ، نهضة مصر للطباعة، القاهرة ، ١٩٩٥م .
- ٢٥- العلاق (علي جعفر) ، الشعر والتلقي ، دار الشروق ، عمان ، الأردن ، ط ١٩٩٧م .
- ٢٦- فان ديك (تون) ، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات ، ترجمة د. سعيد حسن بحيري ، دار القاهرة ، مصر ، ط ٢٠٠٥م .
- ٢٧- فخر الدين (الإمام محمد الرازي) ، التفسير الكبير ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٣ .
- ٢٨- فضل (د . صلاح) ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد ١٦٤ ، الكويت ، أغسطس ١٩٩٢م .
- ٢٩- الفقي (د. صبحي إبراهيم) ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، دار قباء ، ط ٢٠٠٠م .

- ٣٠- قطب (سيد) .
 - التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار الشروق ، ط ١٧/٢٠٠٤ م .
 - في ظلال القرآن ، دار الشروق ، مصر ، ط ٣٢/٢٠٠٣ م .
 ٣١- مان (فولفجانج هاينه) ، مدخل إلى علم لغة النص ، ترجمة د. سعيد بحيري ، مكتبة زهراء الشرق ، ط ١/٢٠٠٤ م ، القاهرة .
 ٣٢- نحلة (د . محمود أحمد) ، دراسات قرآنية في جزء عم ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨ م .

الهوامش والإحالات :

- (١) انظر : د. سعيد حسن بحيري ، علم لغة النص نحو آفاق جديدة ، مكتبة زهراء الشرق ، ط ١/ ٢٠٠٧ م ، القاهرة ، ص ١٠٦ .
 (٢) انظر : السابق : ٥٩ .
 (٣) ذكر أستاذنا الدكتور محمد حماسة أن النص الجيد يصنع شبكة من العلاقات الرأسية والأفقية المحكمة ، ومن خلال هذه الشبكة يتدرج البناء ويتصاعد حتى يصل إلى ذروة الإبلاغ الفني . وقد شرح هذه الفكرة في أكثر من موضع . انظر : اللغة وبناء الشعر : ٣٢، ٣٣، ٣٨، ١٢٨ ، والإبداع الموازي : ٣٦، ٥٥، ٥٦ ، والجملة في الشعر العربي : ٧١، ٧٢ ، وبناء الجملة العربية : ٤٣، ١١٣ .
 (١) انظر : تون أ . فان دايك ، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات ، ترجمة د. سعيد بحيري ، ط ٢/٢٠٠٥ م ، دار القاهرة ، مصر ، ص ٢١٠ .
 (٢) انظر : د. صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٦٤ ، أغسطس ١٩٩٢ م ، ص ٢٠٥ .
 (٣) انظر : علم النص مدخل متداخل الاختصاصات : ٢٤٤، ٢٤٥ .
 (١) فولفجانج هاينه مان ، مدخل إلى علم لغة النص ، ترجمة د. سعيد بحيري ، مكتبة زهراء الشرق ، ط ١/٢٠٠٤ م ، القاهرة ، ص ١٢٤ .
 (٢) انظر : د. عزة شبل ، علم لغة النص النظرية والتطبيق ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ١/٢٠٠٧ م ، ص ٢٤٤ .
 (١) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، ط ١/٣٣٧ م .
 (١) الزبيدي ، تاج العروس ، تحقيق : عبد العليم الطحاوي ، ط ٢/١٩٨٧ م ، مطبعة حكومة الكويت ، (نسب) ٤/ ٢٦٥ .

- (٢) الشريف علي بن محمد الجرجاني ، التعريفات ، المطبعة الخيرية بمصر ، ط ١/دون تاريخ ، ص ١٠٦ .
- (٣) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث ، القاهرة ، ٣٥/١ .
- (٤) انظر : د. صبحي إبراهيم الفقي ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة ، ط ١/٢٠٠٠م ، ٩٩/٢ .
- (٥) انظر : البرهان : ٣٧/١ .
- (١) انظر : براون - يول ، تحليل الخطاب ، ترجمة : د. محمد لطفي ود. منير التريكي ، نشر جامعة الملك سعود ، ١٩٩٧م ، ص ١٠١ . و د. محمد خطاي ، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط ١/١٩٩١م ، ص ١٨٩ - ١٩٨ .
- (٢) البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ٦/١ .
- (٣) البرهان : ٣٦/١ .
- (٤) نظم الدرر : ٧/١ .
- (١) علي جعفر العلاق ، الشعر والتلقي ، دار الشروق ، عمان ، الأردن ، ط ١/١٩٩٧م ، ص ١٧٣ .
- (٢) البرهان : ٢٧٠/١ .
- (٣) انظر : التحرير والتنوير : ٥/١٨ .
- (٤) نظم الدرر : ١١١/١٣ .
- (١) انظر : سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، مصر ، ط ٣٢/٢٠٠٣م ، ٢٤٥٢/٤ .
- (٢) البرهان : ١٨٥/١ ، ١٨٦ .
- (٣) السابق : ١٨٦/١ .
- (٤) انظر : لسانيات النص : ١٩٥ .
- (١) جلال الدين السيوطي ، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ضبطه أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١/١٩٨٨م ، ٥٢/١ .
- (٢) انظر : البرهان : ١٦٦/١ .
- (٣) انظر : التحرير والتنوير : ٨/١٨ .

- (^١) عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، بتعليق محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٥/٢٠٠٤ م ، ص ١٣٢، ١٣٣ .
- (^١) الأزهر الزناد ، نسيج النص ، بحث في ما يكون به الملفوظ نصا ، المركز الثقافي العربي ، ط ١٩٩٣/١ م ، ص ١٧٠ .
- (^٢) معترك الأقران : ٦١/١ .
- (^٣) السابق : ٦٣/١ .
- (^١) البرهان : ٣٨/١ .
- (^٢) انظر : جلال الدين السيوطي ، تناسق الدرر في تناسب السور ، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١٩٨٦/١ ، ص ٦٥ .
- (^٣) انظر : لسانيات النص : ٢٠١ .
- (^١) انظر : نظم الدرر : ٥/١ .
- (^٢) انظر : معترك الأقران : ٤٥/١ - ٤٨ .
- (^٣) السابق : ٤٩/١ .
- (^١) انظر : التحرير والتنوير : ١٨/١٨ ، ١٩ .
- (^٢) نظم الدرر : ١٠٧/١٣ .
- (^٣) انظر : السابق : ١٠٨/١٣ .
- (^١) انظر : الآلوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٦/١٨ .
- (^١) انظر : في ظلال القرآن : ٢٤٥٢/٤ .
- (^٢) انظر : نظم الدرر : ١٣٠/١٣ .
- (^٣) المقصود بحسن التخلص " أن ينتقل مما ابتدأ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاسا ، دقيق المعنى ، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما " . معترك الأقران : ٤٧/١ ، وذكر الزركشي أن من أحسن أمثلته قوله تعالى : " الله نور السموات والأرض ... " (النور: ٣٥) ؛ " فإن فيها خمس تخلصات : وذلك أنه جاء بصفة النور وتمثيله ، ثم تخلص منه إلى ذكر الزجاجاة وصفاتها ، ثم رجع إلى ذكر النور والزيت يستمد منه ، ثم تخلص منه إلى ذكر الشجرة ، ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت ، ثم تخلص من صفة الزيت إلى صفة النور وتضاعفه ، ثم تخلص منه إلى نعم الله بالهدى على من يشاء " . البرهان : ٤٣/١ .
- (^١) انظر : في ظلال القرآن : ٢٤٧١/٤ .

- (^١) انظر : د. تمام حسان ، البيان في روائع القرآن ، عالم الكتب ، ط ١/١٩٩٢م ، ٢٦٧ .
- (^٢) انظر : د. عبد الله الشمايلة ، الإيقاع في القرآن الكريم مظاهره ووظائفه ، مجلة فرقان الإلكترونية ، الإصدار ٥٢ ، مايو ٢٠٠٦ .
- (^٣) عباس العقاد ، اللغة الشاعرة ، نهضة مصر للطباعة ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، ص ٨ .
- (^٤) سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار الشروق ، ط ١٧/٢٠٠٤م ، ص ١٠٢ .
- (^٥) انظر : الإيقاع في القرآن الكريم ، الإصدار ٥٣ ، يونيو ٢٠٠٦م .
- (^١) انظر : اللغة الشاعرة : ١٨ .
- (^٢) السابق : ١٩ .
- (^١) انظر : التحرير والتنوير : ٨٢/١٨ .
- (^٢) انظر : نظم الدرر : ١٦٢/١٣ .
- (^٣) انظر : د. إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، مكتبة الأنجلو ، ط ٦/١٩٨٤م ، ص ٧٨ .
- (^١) الزجاج ، معاني القرآن وإعرابه ، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلي ، عالم الكتب ، ط ١/١٩٨٨م ، ٢٣/٤ .
- (^٢) انظر : الأصوات اللغوية : ٦٦،٦٣ .
- (^١) انظر : روح المعاني : ٥/١٨ ، و التحرير والتنوير : ١٢/١٨ .
- (^١) انظر : البرهان : ٥٣/١ .
- (^٢) انظر : معترك الأقران : ٢٥/١ .
- (^٣) انظر : الأصوات اللغوية : ٦٦،٤٥ .
- (^٤) انظر : ابن جني ، الخصائص ، تحقيق: محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ٢٣٤/١ .
- (^١) انظر : البرهان : ٧٦،٧٥/١ .
- (^٢) انظر : د. محمود أحمد نخلة ، دراسات قرآنية في جزء عم ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨م ، ص ١٢٣ .
- (^١) دلائل الإعجاز : ١٠٦ .
- (^٢) انظر : التحرير والتنوير : ٩١/١٨ .
- (^١) ابن جني ، المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، تحقيق: علي النجدي ناصف وآخرين ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٩٦م ، ٣٣٥/٢ .

- (١) انظر : شرح الرضي على الكافية ، تعليق : يوسف حسن عمر ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ط٢/١٩٩٦م ، ٣/٥ ، ١١ .
- (١) انظر : التحرير والتنوير : ٢٠/١٨ .
- (٢) السيوطي ، الاقتراح في علم أصول النحو ، تحقيق الدكتورين : أحمد سليم الحمصي ، ومحمد أحمد قاسم ، جروس برس ، ط١/١٩٨٨م ، ص ٧٧ .
- (١) انظر : البرهان : ٢/٢٣٦ .
- (٢) انظر : الزوزني ، شرح المعلقات العشر ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ص ٢٩ .